أدبنى ربى فاحسن تاديـــبى

للاستاذ محمود شلبى

ولعل سائلا يسأل . وكيف أدبه ربه ؟

والجواب أن المقادير أساليب فى التأديب والتربية . .

فالمعنى على ذلك : سلك بى ربى طرقا من المقادير . تؤدى إلى احسان تربيتى .

ما معنى هذا ؟ . . معناه أن الله فرض على محمد صلى الله عليه وسلم أساليب من الحياة تؤدى إلى تربيته أحسن التربية .

وليس معنى (أدبنى ربى) أن الله أمسك له عصا يزجره به . أو أنزل اليه مربيا يتولى تربيته . . كلا . وإنما المعنى أن المقادير تولت تربية . .

فكيف كان ذلك ؟ .

كان ذلك يوم اختطف القدر أباه وهو جنين فى بطن أمه . فذاق (ﷺ) اليتيم وهو فى أحشائها ! .

ويوم مانت أمه بعد قليل من مولده . . فانضم بذلك . يتم الأم إلى يتم الأب فصار اليتيم لطيما ! :

وذاق (ﷺ) مرارة اليتم من طرفيه . . ، وحزن . وإن للحزن لأثرا فى تربية النفوس .

وكان ذلك عندما توفى جده عبد المطلب . الذى كان يحبه أشد الحب . . فذاق الطفل مرارة الحرمان من العطف والحنان . . فلا أم يأوى اليها . ولا أب يستند عليه . وحتى جده الذى كان يجد فى حنانه شيئا من العوض عما فقد . . ، حتى هذا هو الآخر يموت ! .

وآوى إلى عمه أبى طالب . ودافع عنه أبو طالب أشرف الدفاع ضد قريش ، وآوى إلى خديجة . ووجد فيها حنان الزوجه . وعطف الامومة .

فهل تركته المقادير إلى عمه ، وإلى زوجة . . كلا . وانما اخطتفتها تباعا .

وفقد الرسول صلى الله عليه وسلم من كان يدافع عنه . ومن كانت واحته التى يأوى إلى ظلالها كلما أشتدت به حراره الجهاد .

حتى اجترأت عليه غلمان قريش . وآذوه أشد الايذاء .

وهنا تعلم صلى الله عليه وسلم أن الحياة لا أمان لها . وأن الذى يركن إلى سبب من أسبابها انما يركن إلى هباء . .

وأنه لا ملجأ من الله الا إليه . .

وعلمته المقادير أن الملاذ إلى الله وحده . . لا إلى أبى طالب . ولا إلى خديجة .

واشتد ايذاء قريش . وأذن له أن يهاجر . وخرج مهاجرا إلى المدينه .

وحده ! ! . ليس معه غير صاحبه . هنالك كان ثالثهما الله . . وأدرك صلى الله عليه وسلم أن الله حسبه . أدركهما يوم اجتمعت عليه الدنيا . فمنعه منها . وهو لا حول له ولا قوة .

وهذا أسلوب من المقادير لتلجئه الى الله مرة أخرى . .

وكانت غزوة أحد . . ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعز الناس عليه . عمه حمزة . . وقد تناثرت أحشاؤه . من سوء ماصنعت به بنت أبى سفيان ! .

وأقسم لينتقمن له . . ولكن المقادير أبت عليه ذلك . . فرجع صلى الله عليه وسلم عما كان ينوى : ونزل على إرادة الله ! .

وهناك المقادير التى تعقبته صلى الله عليه وسلم : من بعد أولاده :

انه يراهن يتوفاهن الله تباعا . . فيحزن : ويعلم أن كل انسان سوف يموت ويدخل التجربة بنفسه . ويعانيها : حين تتساقط فلذات كبده : واحدة بعد الأخرى حتى ابراهيم : ولده الصغير . ذلك الذى كان يحبه حبا شديدا : هو الآخر يموت : ويذوق صلى الله عليه وسلم آلاما فوق آلام البشر . وحيدة : وشجيه . يذهب هو الآخر . .

حتى فاطمة : رضى الله عنها . يسر إلى أذنها أنها أول من يلحق به من أهله وماتت بعده بشهور . وكان صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك قبل موته :

ما هذا ؟ . . إنها المقادير التى كتب الله على رسوله أن يسلكها . فيكون منها خير أستاذ : وخير تربية له صلى الله عليه وسلم :

ثم هناك الرسالة : والاعداد لها قبل نزولها فهو الأمين قبل أن يبعث : والصادق بعد أن يبعث :

وهو أشجع الناس . وأكرم الناس : وأحلم الناس : وأعلم الناس .

جمع الصفات الحسنى : فكان أهلا لتلك الرسالة :

وهذا أيضا من المقادير التى كتبت عليه ، ليتطابق الرجل مع الدعوة : فهو القرآن والقرآن هو :

أراد الله أن يظهر للناس أن محمدا يحمل إليهم رسالته : فكانت تلك العملية الضخمة : من التكذيب : الى المحاربة إلى الصبر :

فعلم الجميع أن محمدا رسول الله حقا :

وأراد الله أن يظهر شجاعة رسول الله . فمرت به المقادير فى ما يظهر تلك الشجاعة : فعلم القاصى والدانى : أنه أشجعهم : كوقفته يوم حين : حين برز وحده لأربعة آلاف وهو يقول : أنا النبى لا كذب : أنا ابن عبد المطلب ! :

وأراد الله أن يظهر سخاءه : فمرت به المقادير على أوضاع تتبدى منها تلك الخلال : حتى ليتصدق صلى الله عليه وسلم بواد من الإبل مرة واحدة !

وأراد الله أن يظهر صبره للعالمين ، فيجاهد به العرب جميعا : ويحاولون زحزحته عن موقفة ولو قليلا ، فما استطاعوا أن يخـــدعوه ، وما استطاعوا أن يستميلوه .

عرضوا عليه كل المغريات . فأبى ، وأطلقها خالدة : خلود الحقائق : لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى شمالى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ! !

وهكذا . . وهكذا . . تجرى به المقادير ، فى بحر الحياة إلى حيث يبدو للناس كأنه أن ذلك رسول الله اليهم جميعا .

حتى فى الآخره . . . وضع المقادير النبى (ﷺ) وسلم فى موضع يظهر الخلائق جميعا فيه فضلة على جميع الخلق . . على الناس . على الجن . على الملائكة . يوم يموج الناس فى بعضهم موجا . وما يزالون بالأنبياء . حتى يأتون محمدا ، ويرجونه فيذهب إلى ربه يستأذنه أن يفصل بين الناس . فيأذن له حينئذ يدرك كل انسان . كل مخلوق . من هو محمد ؟ وما هو مقام محمد ؟

والآن . . لعل ذلك الذى قدمناه يكون منه إشارة الى تلك العبارة . (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) .

محمود شلبى